عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الثانية: مدخل لعلم التصوف (2)
الدرس الأول: لكل علم رجاله وأهله
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

لكل علم رجاله وأهله

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

التصوف مدرسة أصيلة وُلدت من رَحِم الدين الإسلامي منذ القرون الخيرة الثلاثة الأولى، كسائر المدارس الفقهية والحديثية وغيرها...، ويهتم بتحصيل المعاني الروحية والسلوكية والتزكوية والأخلاقية التي هي روح الدين وجوهره، وهو ما يصطلح عليه كذلك بفقه القلوب.

فقه القلوب وأهل الاختصاص: هذا الفقه الذي يهتم بتزكية وحياة وإعمار القلوب، لا يُؤخذ إلا عن أهل الاختصاص وأربابِه؛ فالدِّين في كُلياته وفي جزئياته لا يَعملُ ولا يَعتدُّ إلا بِرَأي المُتخصص؛ فيه قال الخليفة عمر (سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، 394/1): «من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفقه [الفقه في العصر الأول كان يطلق، كما قال الإمام أبو حنيفة على: «معرفة النفس ما لها وما عليها»] فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله تعالى جعلني له خازنا وقاسما «.

ومن ثمّ، كان من الواجب أن يلتزم كلُّ جانبٍ في الإفتاء بميدان اختصاصِه واشتغاله، حفاظاً على الدين، وتحصينا للأمة من كل زيغ وانحراف.

أخذ العلوم عن غير أهل الاختصاص: فهل يمكن أخذ علوم القرآن عن المحدثين؟، وهل يمكن أخذ المعارف الكلامية والعقائدية عن علماء النحو؟، وهل يمكن تلقي علوم الصناعة الحديثية عن الفقهاء؟،... لاشك أن ذلك إن حصل سيكون من العبث!... ومن ثمّ، لا يمكن كذلك الكلام في

التصوف ولا أخذه عن غير أهله دون الرجوع إلى أهل الاختصاص؟،... فلكل عِلْمٍ أعلامه ومصنفاته ومصطلحاته، ولا يمكن نقل دقائقه إلا عن أهله وأربابه...

آفة أخذ التصوف عن غير أهل الاختصاص: أدّى الكلام في التصوف من غير أهله إلى تشويه حقيقته وإلى التباس الحقّ بالباطل، خاصة في الوقوف على مصطلحات هذا الفن؛ حيث أُوِّلت في كثير من الأحيان في غير مدلولها، مع العلم أن العبرة ليس بمنطوقها؛ قياسا على ذلك، على سبيل المثال، ما وقع للأعرابي (كما ثبت في الصحيحين) لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ استعمل خيطين أبيض وأسود ليعرف اللَّيل مِن النَّهار فقال له رسول اللَّه ﷺ: إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ إِنَّمَا هُو سَوادُ اللَّيلِ وبَياضُ النَّهار» أي كثير الغَباوَة وقليل الفهم.

فكم من «عريض وِسادة» اتهم الصوفية اتهامات باطلة... في هذا المعنى قال الشيخ زروق في قواعده: «وربما كُفِّر وبُدّع وفُسّق مُحققٌ لقصور عبارته عن توصيل مقصده بوجه سليم عن الشبه،...». وتفاديا لهذا الزلل، قال في قاعدة أخرى: «إنما يؤخذ عِلمُ كلِّ شيء من أربابه،... وإنما يُرجع لأهل الطريقة، فيما يختص بصلاح باطنه من ذلك، ومن غيره».

ولابن القيم كذلك في (المدارج، 121/3) كلام نفيس قال فيه: «فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها، فإنها أصل البلاء،... والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوَها وأرادوا بها معاني صحيحة في نفسها، فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم واتخذوا كلماتِهم المتشابهة تُرساً له وجُنّة...».

وقال صاحب اللُّمع (ص 39) (السراج الطوسي منذ القرن الرابع الهجري، ت378هـ): «ولا خِلاف في أنّ أصحاب الحديث إذا أشكل عليهم عِلمٌ من علوم الحديث... لا يرجعون في ذلك إلى الفقهاء، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة (من مسائل الفقه)... لا يرجعون في ذلك إلى أصحاب الحديث، وكذلك من أشكل عليه عِلمٌ من علوم هؤلاء الذين تكلموا في مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب، ووصفوا العلوم واستنبطوا في ذلك بإشارات لطيفة ومعانٍ جليلة، فليس له أن يرجع في ذلك إلاّ إلى عالم مِمَّن يكون هذا شأنه، ويكون مِمَّن قد مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ، وليس لأحد أن يَسُط لسانه بالوقعية في قوم لا يعرف حالهم، ولم يعلم علمهم، ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم فيهلك ويظن أنه من الناصحين، أعادنا الله تعالى وإياكم».

قال ابن خلدون (المقدمة، 991/3): «اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه... وقَصُرَت مدارك من لم يشاركهم في طريقتهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك، وأهل الفُتيّا بين مُنكِر عليهم ومسلِّم لهم، وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، رداً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوِجْدانِيّات».

فكيف إذن بمن لم يُحط بدقائق هذا العلم، ولم يعرف معنى مصطلحاته أن يخوض فيه؟! «فالكلام في الشيء فرع عن تصوره»، و«لو سكت من لا يعرف لقلَّ الاختلاف».

صفات أهل العلم: من صفات أهل العلم: خشيتهم لله تعالى لقول: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، من خشية العلماء لربهم أنَّهم لا يتقوَّلوا عليه بغير علم، ولا يوقِّعوا عنه بجهل،... فهم وقَّافون عند حدود الله ونواهيه؛ لكن من الناس من اتخذ رؤوساً جهَّالاً في فن التصوف فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا.

قال الإمام الشافعي (الرسالة، ص 41): «الواجب على العالمين أن لا يقولوا إلاَّ من حيث عَلِمُوا، وقد تكلَّم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلَّم فيه منه لكان الإمساك أوْلى به، وأقرب من السلامة له».

وقال ابن حزم (مداواة النفوس، 23/1): «لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنَّهم يجهلون ويظنُّون أنَّهم يعلمون، ويُفسدون ويقدرون أنهم يصلحون».

خلاصة: التصوف، كغيره من العلوم، يتعلق بتحقيق مَناطٍ خاص لا يُدْرِكُ حقيقته إلا أربابُه وأهلُه، لكن وللأسف، من الناس من تطاول على المنابر وبضاعتُه في هذا العلم (التزكية) مزجاة،... من الناس من رمى التصوف بأحكام سقيمة، بعيداً عن التصور الشرعي والإدراك العلمي...؛ وهذا ليس من الأمانة ولا من المنهج العلمي... وأنَّى لمن لم يَخْبِر الرجال ويطوي الركاب أن يعرف حقيقة القوم!